دقة المثل القرآني وأثره في تبليغ الدعوة

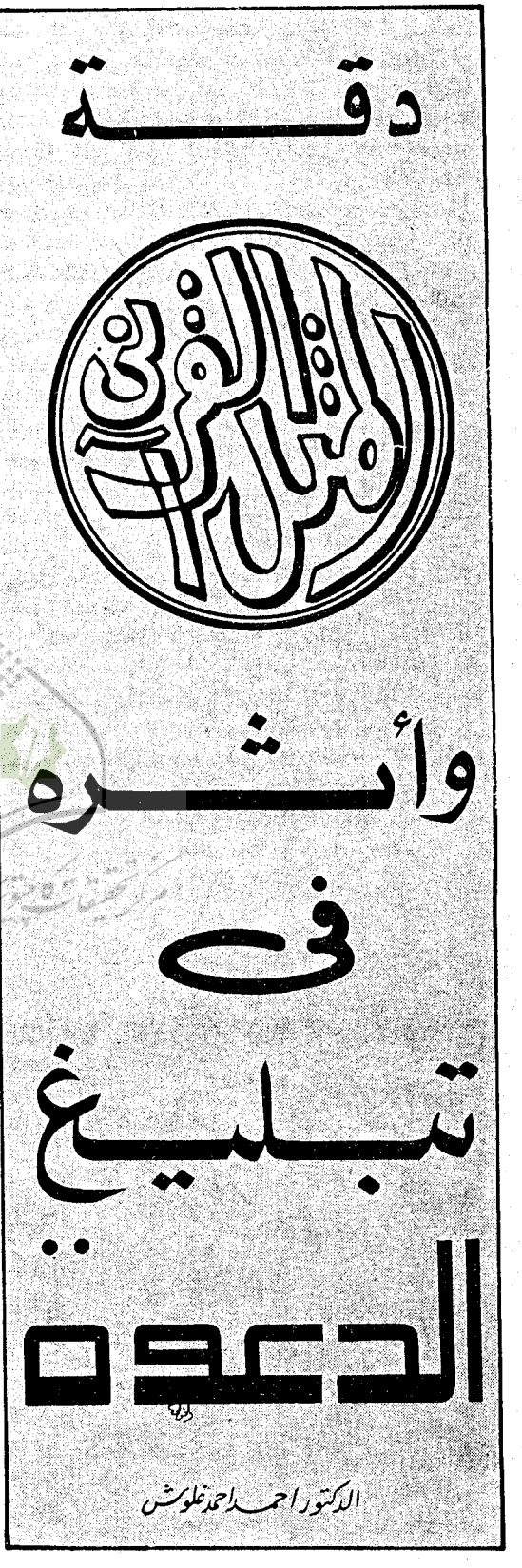

الدكتور احمد احمد غلوش

أساليب تبليغ الدعوة بيانية بالضرورة. لأنها في جملتها عدد من الكلمات والجمل تحمل المعنى المراد تبليغه وهو جزء من دين الله تعالى ، فلو جاءت الكلمات غامضة المفهوم ، أو خفية الدلالة على هدفها لعجزت عن الوفاء بالغرض المقصود .

ومن هنا كانت أساليب الدعوة بصورة عامة واضحة بينة تدل على معناها بسهولة ويسر . بل ان الامام الغزالي يرى أن أساليب الدعوة لابد مع وضوحها أن تكون مالكة لعوامل الاثارة الوجدانية . والاقناع العقلي لأنه يشترط في تبليغ الدعوة الاسلامية أن تثير داعية النظر في المدعوين .

والقرآن الكريم انزله الله تعالى حاويا لأساليب الدعوة على اختلافها وتنوعها . ولذلك جاء بينا . ميسرا . سهلا يقول الله تعالى عن القرآن الكريم :

« فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » .

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وهكذا القرآن الكريم ميسر القراءة ، ميسر الحفظ ، ميسر الفهم والدلالة . ويكفي أنك لو كلفت انسانا ليحفظ كتابا من تاليف بشر فانه يعلن عجزه التام . في الوقت الذي يمكنه فيه حفظ كتاب الله تعالى .

والمثل القرآني أحد أساليب القرآن البيانية يحمل بعض المعاني والتعاليم ويوصلها بيسر لا عنت فيه ، وبدقة لا خلل معها . وفي واقعية بعيدة عن الخيال . وبتأثير شامل لكل طاقات الانسان وملكاته أيا كان وكيفما كان ، وذلك يحتاج لتفصيل .

أولا : يسر المثل القرآنى :

تأتى أمثال القرآن الكريم دائما سهلة الفهم . واضحة الدلالة لا تحتاج الى بذل عقلى . وجهد فلسفى . وقواعد منطقية ولكنها دائما بسيطة ميسرة . انظر قوله تعالى « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** » وتبدو سهولة هذا المثل من انتساب الخلق جميعا الى آدم واحاطتهم بقصة خلقه على وجه الاجمال او التفصيل ، وهم يسلمون بها وبخاصة المؤمنون بدين ، اذ جاءت قصته فى التوراة وفى سائر الكتب المنزلة ، ومن هنا فضرب المثل به للدلالة على قدرة الله فى خلق اى انسان على غير النهج المعروف فى الخلق امر واضح . لأن آدم خلق من غير اب ومن غير ام . فأى خلق بعد ذلك من غير اب ، او من غير ام امر سهل ميسر على الله ، مسلم من العقلاء ، ولذلك لما زعم بعض الناس أن خلق عيسى عليه السلام من غير اب يرفعه عن درجة البشرية رد الله زعمهم بضربه خلق آدم مثلا يرد باطلهم حيث خلق آدم عليه السلام من غير أبوين . ومع ذلك لم يخرج عن نطاق بشريته . ومن دلالة سهولة المثل القرآنى قول الله تعالى « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** » . وسهولة المثل هنا بينة واضحة . وحسبك أن تتصور حمارا يحمل كتبا ضخمة مليئة بالعلوم النافعة . هل سيستفيد بها ؟ . انه لن يستفيد منها شيئا . فهو لا يعقل . ولا يفهم لغبائه وحيوانيته واذا شبه به غيره يعرف القصد والغاية ، وحينئذ يكون شأن أهل التوراة الذين اهملوها كمثل الحمار فى الغباء وعدم الاستفادة والتعب بلا ادراك .

ولو عشنا مع أمثال القرآن الكريم جميعا لوجدناها على هذا النمط فى سهولتها . ويسر فهمها . ووضوح دلالتها على الغرض الذى سيقت له . ومن هنا فاستعمال المثل القرآنى اسلوبا لادعوة يسير مع المنهج الواجب فى التبليغ لتظهر الدعوة وتتضح ببساطة ويسر .

ثانيا : دقة المثل القرآنى :

الناظر فى أمثال القرآن الكريم يلحظ دقتها الفريدة . ويتمثل ذلك فى بعد الأمثال عن الصور الغريبة . واعتمادها دائما على الصور الموجودة المحسوسة ، وبعد ذلك يجليها بأوصافها ، ويضعها فى المثال شاهدة على ما يريد ذكره وبيانه . ومن ذلك قول الله تعالى « **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** » . ففى هذه الآية ضرب الله مثلا للكافرين وغيرهم الذين يتخذون أولياء غير الله ليبين لهم انه لا قدره مع قدرة الله تعالى . وان قدرة ما عدا الله هينه هزيلة لا تكاد تذكر . وحتى يكون المثل دقيقا فى هذا ضرب المثل بالعنكبوت وهو يلجأ لبيته ويأوى اليه انه حينئذ يتعلق بأواهى الضعيف . والكل يعرف ذلك لأن العنكبوت من الحشرات التى تنتشر فى كل البيئات وفى كل الأماكن . والكل يعرف وهن بيته اذ هو ينهدم بلمسة رقيقة ، ونسمة هواء عادية . ومن هنا كان اعتماد العنكبوت على بيته مثلا واضحا على اعتماد على شىء لا قيمة فيه . ولا قدرة له . ولا اعتبار لأثره ، وشأن من يتخذ غير الله وليا كشأن هذا العنكبوت اذ الولاية الحقيقية يجب أن تكون لله تعالى .

ومن دقة هذا المثل أن العنكبوت نفسه حشرة لا يؤبه لها . ولا يتحمل من يقاومها اية جهد وتشبيه الغير بها منفر بغيض فاذا ماثلها من اتخذ غير الله وليا فهو مستحق للبغض والكراهية لأنه أهان نفسه . واعتدى على انسانيته .

ومن علامة الدقة فى الأمثلة القرآنية أنها حين تضرب المثل بصورة غير موجودة بالفعل تجدها تأتى بها صورة يمكن أن توجد حقيقة . ومن ذلك قول الله تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء** » لأنه لا يوجد عاقل يمنع وجود هذه السنابل بحباتها الكثيرة الناتجة من الحبة الواحدة على التسلسل المذكور . ولكى تكون الدقة واضحة نجد هذا المثل يذكر من الأوصاف والقيود ما يجعله مستساغا سهلا . فيبن كيف تتحول الحبة الواحدة الى مئات من الحب . وذلك لأنها تزرع فتنبت سبع سنابل . وفى السنبلة الواحدة مائة حبة . وهذا ممكن مشاهد وبهذه الدقة تكون أساليب الدعوة .

ثالثا : واقعية المثل القرآنى :

وأمثال القرآن الكريم لا تبعد عن واقع الانسان . بل تعيش معه وتنطلق من حياته . وتخاطبه بالصور الموجودة فى بيئته . ومن ذلك قول الله تعالى : « **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون . ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** » فهذا العبد المملوك لعدد من الرجال صورة واقعية يظهر فيها التنازع والاختلاف والتضارب لأن كل مالك

يريد تسخيره وفق هواه . ومن هذا الواقع يضرب الله المثل للمشرك الذى يعبد عددا من الآلهة فيعيش فى حيرة واضطراب أشد من حيرة العبد واضطرابه لان العبد يخضع لمن يأمره من أسياده أما ذلك المشرك فانه يخضع لهواه . ولمجموعة من التصورات الفاسدة والأوهام الباطلة .

وفى المقابل فان العبد المملوك لسيد واحد يعيش فى راحة بال وعمل . ولذلك فضربه مثلا للمؤمن الذى يعبد ربه الواحد الأحد دليل على الاستقرار . والأمن . والهدوء وذلك كله فى واقعية وموضوعية .

رابعا : قوة تاثير المثل القرآنى :

وتظهر روعة التصوير فى المثل القرآنى .. وقوة تاثيره حين يتخذ من الطبيعة ميدانا يقتبس منها صورة . فمن نباتها نرى الجنة تنبت سبع سنابل . ونرى الشجرة الطيبة والخبيثة . والزرع الذى أخرج شطأه ، ومن حيواناتها نرى الحمار والكلب ، ومن حشراتها نرى البعوض والعنكبوت ، ومن طيورها نرى الهدهد . ومن أحجارها نرى الرماد الصلد والجبل . وانما كان الأمر كذلك لأن القرآن الكريم لا يقصد الاهتمام بالمثل به بقدر ما يهتم باقتراب الصورة فى نفس المدعو مع شدة وضوحها وتأثيرها .

هذا وان بدا فى بعض الأمثال أنها غير مستمدة من الكون كقوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى . يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » . ومع ذلك فانها لا تبعد عن الطبيعة كثيرا ، لأن هذا المصباح ملازم لكل الناس حيث لا يستغنى عنه أحد .

ولأن القصد من ضرب المثل هو التأثير النفسى نرى المثل حين يقصد تحقير الشىء يضرب له المثل الذى يثير فى النفس اشمئزازا ونفرة كقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

يقول صاحب المنار « واللهث التنفس الشديد مع اخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، أما الكلب فيلهث فى كل حال . وهذا الرجل صفته كصفة الكلب فى حالته هذه . وهى اخس احواله واقبحها . والمراد انه كان من اخلاده الى الأرض واتباع هواه فى أسوأ حال تراه كلاهث من الاعياء والتعب وان كان ما يعنون به ويحملون همه حقيرا لا يتعب ولا يفنى ولا تراه راضيا بما أصابه ، بل يزداد طمعا وتعبا » .

وهكذا يحقر المثل هذا الرجل بأن يمثله بالكلب فى أسوأ حالاته . وهذا يؤثر فى نفس المستمع . ويجعله يبعد عن صورة هذا الرجل ويفتح ذهنه للايات والأدلة .

خامسا : الترغيب والترهيب فى المثل القرآنى :

يجذب المثل القرآنى محدثه وقارئه عن طريق ترغيبه فى الخير والثواب . أو عن طريق تخويفه بالشر والعقاب . لأن الانسان عادة يساق من داخله . فاذا خاف أو رغب انساق للمطلوب ، ومعنى هذا أن المثل القرآنى كأسلوب للدعوة لا يكتفى بمجرد الاقناع العقلى وانما يلجأ الى الوجدان والبصيرة ويحدث فيهما انفعالا واستثارة وعاطفة وبذلك يتحقق له المراد .

ولا يلجأ المثل فى ترغيبه وترهيبه الى المواجهة المباشرة . وانما يكتفى باستعراض حالات الانسان المختلفة ومصيره فى كل حالة محددة ليظهر مصيره . وحينئذ يختار المشاهد لنفسه من **أى أنواع الانسان يكون ؟**

ان الانسان مع الاسلام أما أن يكون مؤمنا ، وأما أن يكون كافرا ، وأما ان يكون منافقا . يأتى المثل فيصور الانسان حالة حالة ويضرب لكل حالة مثلها .

فعن الكافر يقول الله تعالى : **« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون » وهذا المثل** يضع الكافر فى صورة بهيمة من البهائم . تسمع صيحات داعيها ولا تفهم منه شيئا . ولا تعقل له توجيها . وهذا الكافر لا أثر لعمله ونشاطه، يقول الله تعالى عنهم وعن نشاطهم : **« مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته »** وهذا المثل يصور نفقتهم فى حالة ذهابها وفنائها بالكلية يحرث قوم ظلموا انفسهم فأتتهم ريح عاتية فاستأصلت حرثهم وزرعهم . وذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم . وليس بعد الكفر ذنب مساوية .

وعن المنافقين يقول الله تعالى : « **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** » وهو مثل يوضح حقيقة المنافق : وانه يعيش بين الايمان ظاهرا الا انه صنع بنفاقه حجابا بينه وبين نور الهدى . وعملهم ضائع وراى الاسلام فيهم لا يقل عن الكافرين بل هم اشد . لأنهم بنفاقهم كافرون ، وبمداهنتهم مخادعون كاذبون، وقد يؤتى من لا يعرفهم بمظهرهم الكاذب .

وعن المؤمنين يقول الله تعالى « **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امراة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** » .

وهو مثل يبين حقيقة المؤمن ، وانه لا تغره مظاهر الحياة الدنيا . بذكر الله فكرا . وقولا . وعملا . انتظارا للفوز فى الآخرة . ويعتمد على الله فى حاجاته ومطالبه ، فامراة فرعون المؤمنة فى بيت ملك وغنى وقوة تهمل كل ما حولها وتتجه الى الله تعالى داعية ان يجعل لها بيتا فى دار الخلد . وان ينجيها من طغيان فرعون وظلمه . وعمل المؤمن لأن عيشه شريف وغايته نبيلة يكون دائما كامراة فرعون يفضل الاخرة على العاجلة . ويعمل للقاء ربه دائما .

والمثل القرآني وهو يصور حالات الناس يبرزها فى صورة مرئية محسوسة ملموسة لتكون شاهدة للعيان . ماثلة امام شعور الانسان ووجدانه ليختار بعد ذلك لنفسه بحريته وارادته .

وهذا المنهج هو أحد اساليب العصر فى التربية والتوجيه وعلى الدعاة أن يجعلوه رائدا لهم .

نصائح للدعاة :

على الدعاة أن يستفيد بمنهج المثل القرآنى فى التاثير والاقناع وعليهم أن يحدثوا الناس بالأسلوب السهل الميسر ، لأن الحديث غير المفهوم لا يفيد شيئا . وما قيمة كلام منمق غير مفهوم ؟ انه لا قيمة له فى الحقيقة بل ان اثره يؤدى الى عكس المقصود .

وعلى الدعاة ان يلجاوا الى الأدلة المعتمدة على الواقع المسلم ولا فائدة فى أدلة تحتاج الى تجريد فلسفى . لأن عامة الناس حينئذ تنفر منها . وتأتيهم تساؤلات لا تفيد .

وعلى الدعاة أن يكونوا واقعيين مع المدعوين فما كان الدين الا للحياة . ولن يكون الا اذا عاش معها يصلحها ويهذبها على منهج الله .

وعلى الدعاة أن يعرضوا الصور الماضية للامم لتكون نبراسا هاديا ومرشدا .

ان أمل الاسلام فى دعاته . فهم حملته . وهم رجاله . وهم صوته المدوى . ولهم الرجاء والدعاء . والله يوفقهم .

وهو نعم المولى ونعم النصير .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كلمة

■ معلم نفسه ومؤدبها . . أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم !

« امام الشهداء . .
على بن أبى طالب »